الخاتمة

كثيرون هم من يسمون بمناهضي العنف، وكثيرة هي الأصوات التي تدين الأعمال العنيفة. ولكن المشكلة أعقد مما نظن، إن العنف محير نقف أمامه مشدوهين، وكثيراً ما يدان من ينادي بإصلاح وتوفيق، إذا كان صوته يتعارض مع مصالح البعض، أو سيقفل الباب أمام جشع المتاجرين بالسلاح. فالعالم الصاخب اليوم تتنافس فيه المصالح، ولا أحد يريد أن يقتنع فالقناعة مفقودة، والنهم القاتل يزداد كل يوم، والطمع لن يتوقف والتدافع مستمر - ما دام هناك من يريد السيطرة على كل الموارد- ومع وجود الطمع والأنانية لا أحد سيربح والخسارة ستكون للجميع.

وإذا كنا قد تحدثنا عن دور المجتمع والسياسة والثقافة والدين نجد أن العنف خاضع لكل هذه العوامل، وهذه العوامل هي من صنع الإنسان، يغذيها ويقويها، فالسياسة خاضعة لإرادة الحكام والقادة، والثقافة هي من بنيات أفكارنا، ورجال الدين ليسوا من الرسل ولا من الأنبياء فأحكامهم وفتاويهم ليست معصومة، والمجتمع هو المسرح التي تتوالى عليه كل الأحداث. ولكن المبدأ الوحيد الذي يبقى أمامنا بسطوعه وإشراقه هو العدالة الإلهية القائمة على التسامح والمحبة والمساواة بين كل البشر.

وأيا كان العنف، وأياً كان الانتقام، يبقى اللاعنف ويبقى التسامح هو المحبب لدى أكثرية الناس. ومن أجمل ما كتب في تمجيد التسامح هذا الدعاء الذي كتبه **فولتير** "في رسالة عن التسامح":

" لا أتوجه بدعائي هذا إلى الناس، بل إليك أنت يا إله الكائنات، وإله العالمين، وإله الأزمنة: إن أذنت لمخلوقات ضعيفة ضائعة في الفضاء الشاسع، لا يدركها سائر الكون، أن تتجاسر فتسألك شيئاً.

أنت يا من أعطيت كل شيء، ويا من أوامره ثابتة سرمدية – تفضل فانظر بعين الرحمة إلى الخطايا الناجمة عن طبيعتنا، ولا تجعل هذه الخطايا مصدراً لمصائبنا. إنك لم تعطنا قلباً ليكره به بعضنا بعضاً. اجعلنا بحيث يعاون بعضنا بعضاً لاحتمال أعباء حياة أليمة عابرة؛ واجعلنا بحيث: الفروق الضئيلة بين الملابس التي تستر أجسامنا الضعيفة، وبين لغاتنا القاصرة، وبين عاداتنا المضحكة، وبين كل قوانيننا وشرائعنا الناقصة، وبين كل آرائنا الحمقاء، وبين كل أحوالنا التي تبدو في عيوننا متباينة ولكنها أمامك متساوية – اجعلنا بحيث كل هذه الفروق الضئيلة – التي تميز الذرات التي تُسمى بني الإنسان – لا تكون علاقات وشارات لإثارة الكراهية والاضطهاد. واجعل أولئك الذين يوقدون الشموع في رائعة النهار احتفالاً بك، يتحملوا أولئك الذين يكتفون بضوء شمسك؛ واجعل أولئك الذين يغطون أثوابهم بقماش أبيض – يقولوا إنه يجب أن نحبك – لا يكرهوا أولئك الذين يقولون نفس الشيء وهم يتدثرون برداء من الصوف الأسود. وليكن سواءً عبادتك بلغة قديمة، وبلغة حديثة، واجعل أولئك المصبوغة ثيابهم بالأحمر أو البنفسجي ويسيطرون على قطعة صغيرة من كومة صغيرة من هذا العالم، ويملكون بعض الشذرات المستديرة من معدن معين - يتمتعوا دون كبرياء بما يسمونه عظمة وثروة، واجعل الآخرين ينظرون إليهم دون حسد، لأنك تعلم أنه ليس في كل هذه الأباطيل ما يستحق الحسد عليه أو التباهي به.

يا ليت الناس جميعاً يتذكرون أنهم أخوة ! وأن يبغضوا الطغيان على النفوس كما يكرهون النهب الذي يسلب بالقوة ثمرة العمل والنشاط الهادئ! وإذا

كانت بلايا الحرب لا مفر منها، فلا يكرهن بعضنا بعضاً، ولا يمزقن بعضنا بعضاً في حضن السلام، ولنستعمل لحظة وجودنا في حمدك بآلاف اللغات المختلفة من سيام حتى كاليفورنيا، على كرمك الذي وهبنا هذه اللحظة".[210]

[210] الأخلاق النظرية، ص 177.

obeikan.com